المكان في رحلات حمدي العطار

أ.م. د فارس نايف فايز
ظافر فيصل ناجي
جامعة سومر / كلية التربية الأساسية

The place in Hamdi Al-Attar's travels

Abstract :

The research works on travel literature, which is a type of prose literary genre through which a writer reviews; A trip, or trips he made to specific places and at specific times, in which he conveys the situations that accompanied that trip, the events he witnessed, and the news he heard, and includes historical, geographical, social, and political information about the country or city he travels to, which is one of the spatial etiquette. And my research specifically about places and their aesthetics In contemporary literary trips undertaken by the Iraqi traveler Hamdi Al-Attar, I divided the research into three sections that bore the titles: the sacred historical place, the natural place, and the place as a representation of the other

المقدمة:

يشتغل البحث على أدب الرحلة ـ والذي هو نوع من الأنواع الأدبية النثرية المهمة التي يستعرض من خلالها كاتبٌ؛ رحلةٌ، أو رحلاتٌ قام بها لأمكنة مُحددة وبأزمنة محددة، وينقل فيها ما رافق تلك الرحلة من مواقف وما شاهدهُ من أحداث وما سمعه من أخبار، ويضمنها معلومات تاريخية وجغرافية واجتماعية وسياسية عن البلد أو المدينة المُرتحِل إليها وهو من الآداب المكانية؛ فالرحلة – بطبيعة الحال- لا يمكن تخيلها إلا أن تكون مسيراً

أو تنقلاً بين الأمكنة. وبحثي تحديداً حول الأمكنة وجمالياتها في رحلات أدبية معاصرة قام بها الرحالة العراقي حمدي العطار والذي سلك بها مسلك من سبقه بأدب الرحلة من تصوير للبلدان المقصودة، وتوصيف أحوالها، ونقل ما يصادفهُ من مواقف أثناء رحلاته وهو من أكثر الرحالة العراقيين المعاصرين سفراً وترحالاً ونتاجاً يخص الرحلة. كثرت وتنوعت الأماكن في أسفارهِ العديدة ومن هذه الأماكن ما حمل طابعاً دينياً تاريخياً؛ لذلك سندرسها تحت عنوان المكان التاريخي المقدس واحتل المكان الطبيعي مساحة واسعة بمدونة العطار لذلك سندرس هذه الأماكن تحت عنوان المكان الطبيعي وللدور الهام الذي تلعبه الشخصيات في تشكيل صورة المكان سوف ندرس دورها في تشكيل صورة بعض الأمكنة المرتحل إليها في رحلات العطار تحت عنوان الأمكنة تمثيلاً للآخر.

المكان

يمثل المكان في أبعاده وتجلياته المتنوعة والمختلفة عنصراً رئيساً ومكوناً هاماً من مكونات العمل السردي، ونتيجة للحضور الموضوعي والفني لهذا العنصر؛ اتجهت الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة إلى تشريح بنية النص الإبداعي ودراسة المكان فيه، من حيث كونه فضاءً وتاريخاً وذاكرةً ولساناً في شتى حقول الأدب والفن[١]

ومن الطبيعي أن يقف أدب الرحلة في مقدمة الأجناس الأدبية السردية التي يكون فيها ظهوراً رئيساً للمكان؛ فالرحلة بمفهومها العام سواء أكانت حقيقية أو متخيلة؛ هي التنقل من مكان إلى آخر[٢] والرحَّالة هو المنتقل من مكان إلى آخر ،فالمكان يكون فيها بفاعلية وتأثير الزمن الذي يتحدُ فيه اتحاداً كبيراً. فلا ينفصل عن بقية العناصر السردية المكونة للرحلة كالأحداث والشخصيات؛ فالمكان لا يظهر في النص السردي بمعزل عن العناصر السردية الأخرى، بل أن هناك نوعاً من التلاحم والارتباط الصميم بينه وبين هذه العناصر وهذا الارتباط يشكل في حد ذاته لوحة مشكّلة جمالياً[٣]

وعنصر الشخصية في مقدمة العناصر السردية التي يرتبط بها المكان الرحلي ارتباطاً وثيقاً فلا بد للرحلة من حضور للمكان بها وأن للشخصية دورٌ كبيرٌ في تشكيل المكان [٤] ومن دون علاقة التأثير المتبادل بين الإنسان والمكان لا يمكن أن تكون هناك رحلة أدبية ، حتى لو بقي الرحالة ردحاً من الزمان في المكان المرتحل فلا رحلة من دون هذا التفاعل [٥]ومن تأثير الإنسان في المكان أن المكان يتغير تبعاً لتغير الأوضاع الاجتماعية فمن"خصائص المكان بصورة عامة أن يكون ذا طابع متغير تبعا لتغير الأوضاع الاجتماعية"[٦]

ومما يسهم في تغيير وتطور المكان وتقلبه من حال إلى حال، التقلبات التي تحدث في الزمن، فالتطور لا يظهر في المكان إلا بسير الزمان[٧] فللزمن مدخلية كبيرة في تحديد نظرتنا للمكان وفي تحديدنا لنوعية المكان أكان مكانا حديثا مثلاً أو مكانا قديماً تاريخياً.

ومن المؤثرات التي تعمل على تنوع الأمكنة في الرحلات، كون المكان الذي تجري فيه أحداثها هو مكان واقعي؛ ذلك إن للمكان الواقعي أهمية كبيرة في تأطير الحكاية؛ فهو المكان المرتبط بالحقيقة الثابتة والموجودة على أرض الواقع والذي يمنح القارئ إحساساً بالصدق المكاني وإذا كان المكان واقعيا يؤدي ذلك إلى تحريك الأحداث والشخصيات داخل النص السردي، مما يؤدي إلى تنوع الأمكنة بحسب المادة السردية التي يرويها الرحالة[٨]

وطريقة التناول المكان تختلف من رحالة إلى آخر؛ بسبب اختلاف زاوية الرؤية بينهم تبعا لعمق علاقتهم بالمكان وقوة ملاحظتهم، إذ قد يتناول الرحالة المكان مع تركيزه على الناحية الدينية وقد يصف رحالة آخر جمال المكان وعمقه التاريخي وهذا لا يمنع أن يتناول غيرهما المكان من الناحية الطبيعية والجمالية؛ فالرحالة صوروا كل ما مر بهم من جبال وأودية وقلاع ومساجد وكنائس وقبور وغيرها وجاء تصويرهم متفاوتاً من حيث الإجمال والإسهاب[٩].

المكان التاريخي المقدس

كان العطار منجذباً في رحلاته إلى الأماكن التاريخية المقدسة من مساجد وكنائس ومقامات وغيرها، ويقدم العطار الأماكن التي يقصدها بطريقة مميزة تجمع بين الوصف والسرد ولا يقدم المكان التاريخي المقدس بمعزل عن المعلومات التاريخية التي تعطي عمقاً للمكان، فالطابع التوثيقي الذي يجانب ويساير ما يمر عليه من أمكنة واحد من أهم ما يميز سرد العطار، والعلاقة عموما بين الرحلة والتاريخ علاقة وثيقة ووشيجة جداً ، يقول أحد الباحثين " لا غرابة أن نجد العلاقة وثيقة بين الرحلة والتاريخ ؛ فالمادة التاريخية في المتن الأدبي هي سرد للحوادث الماضوية والأفعال والأنشطة البشرية ، التي يقوم بها الإنسان في زمن محدد ومكان معين"[١٠]

ولقد أسهب كتاب الرحلة في الحديث عن الأمكنة وفصلوها تفصيلا سواء أكان ذلك المكان محطة عبور أو منطقة أمن أو منطقة إقامة وفي خضم حديثهم أخذوا من ذاكرة التاريخ أمكنة كثيرة والتي شكل وجودها سرداً ممعناً في تاريخ الحضاري للبلدان التي مروا بها أو تكون تلك الأماكن من الأماكن التي عفا عليها الزمن ،ذكروها بتفصيلها الدقيقة من باب الحفظ التاريخي لتكون بذلك شاهداً من شواهد العصر[١١]

والمكان التاريخي يكتسبه صفته التاريخية نتيجة مروره بحوادث تاريخية مشهورة أو نتيجة اقترانه بأحد الأولياء والصالحين [١٢]وهو مكان يشغل حيزاً زمنياً، يطلق عليه الزمكاني، إذ يشكل الزمان والمكان والحركة وحدة لا تنفصم عنه [١٣]

فهو مكان يمزج بين الزمان والمكان ولا ينفصل عن الحاضر فهو يقدم برؤية فيها شيء من المعاصرة؛ فزاوية النظر التي ينظر بها إليه هي زاوية حالية، حديثة، معاصرة.

في مقدمة الأماكن التي اهتم فيها العطار اهتماماً بالغاً هي الأماكن التاريخية المقدسة. فالمكان في وعي الرحالة لا يوصف بمعزل عما يتصل أو يرتبط به، فهناك الأمكنة ذات الصفة الدينية وتأخذ هذه الخاصية نتيجة لقدسيتها عند أصحاب الديانات من مسلمين ومسيحيين، كالمسجد الأقصى الذي اكتسب صفته الدينية لارتباطه بحادثة الإسراء والمعراج [١٤] فللموضوعات الدينية نصيب كبير ومكثف في الرحلات الأدبية" فهي نص غني وثري بها ولا تكاد تخلو رحلة من معالمها أو طقوسها أو شخصياتها، فأثرها في النفوس عميق وراسخ ، يستلهم الإنسان منها حديث النفس ومواساتها ، كما أنها تعكس ثقافات الشعوب وتصور المنظومة الفكرية لطبيعة المجتمع وهي المقياس الأكثر دقة لأخلاق وآداب المجتمع وعلى هذا الأساس اهتم الرحالة عبر العصور في رحلاتهم بالخطاب الديني؛ واستعانوا به في تحليل ومناقشة وتفسير الكثير من قضايا المجتمع الذهنية والدينية"[١٥]

وإذا كان العنصر الديني مكوناً موضوعياً فهو في الوقت ذاته مكوناً بنائياً في النص الرحلي[١٦]

و المساجد التاريخية من تلك الأماكن التي تمزج بين الدين والتاريخ فلها منفذا جذب ـ أن صح التعبير ـ فهي ليست فقط مقصد المؤمن المعتقد الذي تدفعه الايدلوجيا أو الاعتبارات الروحية والتبركية لقصدها، بل هي هدف من أهداف كل من يشده ويجذبه التاريخ.ولكن يبقى الاعتبار الروحي من أهم ما يصنع كينونة وشخصية المسجد كمكان ،فالمسجد" مركز استقطاب مهم لحياة الإنسان بعده الحيز أو الإطار المحيط الذي ينعم به الفرد بمشاعر مشتركة تختفي فيها الشحنات الفردية الذاتية ويشعر فيه بالدفء والسعادة والارتياح والاطمئنان وهو معلم عريق من المعالم الدينية والروحية يعكس الشعور الروحي للشخصية"[١٧]

وتناول العطار هذا المكان الديني وخاصة في رحلاته التركية ومن تلك المساجد ، مسجد أحمد أغا أو كما يعرف باسم المسجد الأزرق: " سمي واشتهر بالمسجد الأزرق لأنه يحتوي على ٢٠ ألف بلاطة زرقاء منقوش عليها ورد وأشجار وفي الجامع ٢٦٠ نافذة زجاجية زرقاء عندما تضرب الشمس على المبنى تدخل خيوط الشمس للجامع لتكون صورة رائعة الجمال ، الجدران الداخلية مزينة ببلاط ازنيك الأزرق المزخرف، يبدو أن المعماري (سيد فكار محمد آغا) كان يريد أن يجعل الجامع أفضل وأبهى من مبنى الكنيسة (آيا صوفية) التي يقابلها الجامع، لكن الخطأ الوحيد الذي وقع فيه هو أنه وضع للجامع ٦ مآذن؛ لأنه سمع بالخطأ من السلطان بأمره بجعل المآذن ذهبية وكلمة ذهبية باللغة التركية متشابهة مع لفظ كلمة ستة، وعندما تعرض للنقد

من قبل رجال الدين؛ لأن بيت الله الحرام له أيضا ٦ مآذن مما أضطر السلطان أن يأمره ببناء مأذنة سابعة في البيت الحرام ليكون مميزاً ومتفوقاً على المسجد الأزرق... يطل الجامع على بحر مرمرة بارتفاع ٤٣متر واستغرق بناءهُ عشرة سنوات وتوفي السلطان أحمد آغا قبل اتمام المسجد وافتتاحه بيوم واحد ."[١٨]

لم يكتفِ الرحالة بنقل الوصف الجميل للمسجد الأزرق ببلاطه الأزرق المزخرف والذي أعطى للمكان اسمه وشيئا من خصوصيته وتميزه باطلالته المميزة على بحر مرمرة وإنما صير وحول المكان إلى فضاءً حاوياً للزمن و الأحداث فنقل لنا تفاصيل وأحداث لطيفة متعلقة ببنائه وفي شخص المعماري الذي قام ببنائه وبشخص السلطان أحمد، فمما صنع جمالية المسجد بالإضافة لوصفه كون المكان فضاء حاوٍ للزمن و الشخصيات والأحداث وحتى التوثيق التاريخي، وحتى أنه قبل أن يتطرق إلى وصفه ذكر لنا خصوصية تعامل الأتراك مع المساجد من قبيل الدخول المجاني إلى المساجد التاريخية كون المساجد بيوت الله ولا يصح أن يتكسب منها ومن قبيل اشتراطهم أن لا تدخل أي امرأة للمسجد إلا بعد أن ترتدي الحجاب ومن قبيل منع السياح من دخول المسجد الازرق في وقت صلاة الجمعة[١٩]

ومن جماليات سرد العطار أنه يقدم لنا بعض الأماكن من خلال السرد التاريخي ومن خلال الأحداث مع مراعاة الإيجاز غير المخل ومن ذلك تقديمه لـ(مسجد بايزيد) التاريخي والسياحي بتركيا: " ويسمى بالجامع العظيم بناه السلطان (يلديم بايزيد) حينما نذر بناء عشرين مسجدا بقدر عدد شيوخ الدين إذا انتصر في الحرب وحينما ربح أرد أن يبني لكل شيخ دين جامعا اقترح عليه الشيوخ أن يبني جامعا فيه ٢٠ قبة كل قبة لشيخ ، قام بشراء البيوت ورفضت امرأة يهودية يقع بيتها في وسط الأرض المخصصة لبناء الجامع بيع بيتها ، فظل البيت في منتصف الجامع حتى ماتت هذه المرأة وعندما أرادوا شراء البيت من أولادها ، قالوا: وصية أمنا أن لا يصبح هذا البيت جامعا ؛ لذلك أمر السلطان بشراء البيت وعمل نافورة ماء مفتوحة من الأعلى لتكون تحت السماء ولا زالت موجودة لحد الآن "[٢٠]

فعرض لنا العطار المسجد من خلال حوادث تاريخية متعلقة به ، وليس من خلال عرض الأبعاد الهندسة للمكان وهذه الحوادث السردية تكسب المكان طابع الحركية على عكس الوصف الذي قد يضيف على الأمكنة طابع الجمود ونرى أن هذه الحوادث التاريخية أثرت على معمار المسجد وأعطت للمكان عمقه التاريخي الجاذب؛ فمع معرفة هذه الحكايات التي اقترنت بتأسيس وبناء هذا المسجد، يُخلق دافع لدى السامع أو القارئ لزيارة هذه الأماكن فجمال الأماكن لا يقرن فقط بمعمارها الهندسي بل بعمقها التاريخي أيضا، فمما يزيد من جاذبية الأماكن التاريخية ما يثار حولها من حكايات وحوادث وأساطير ونقل لنا أيضا جانبا غير مسلط عليه الضوء كثيراً وهو طابع التسامح والأريحية عند السلاطين الأتراك فالسلطان العثماني لم يجبر اليهودية على ما يخالف رغبتها حيةً وميتةً . ونقل لنا كل ذلك بإيجاز شديد.

وفي رحلته إلى أصفهان ينقل لنا وصفاً موجزاً لـ(مسجد جامع عباسي) والذي أشرف على عمارته الشيخ البهائي : "في المسجد هناك مدرستان في زاويتي المسجد ؛ أحدهما مدرسة الناصري وقد تم ترميمها في عهد (ناصر الدين شاه) والثانية مدرسة السليمانية والتي تمت في فترة (شاه سليمان) ومن عجائب الشيخ البهائي الاصفهاني هي (الأصوات السبعة) وتعني حينما نقف في وسط أحدى قاعات المسجد ونضرب قدمنا بالأرض تصدر سبعة أصوات من سقف القاعة وكذلك في حالة التصفيق ! وهناك حالة إبداعية أخرى في المسجد في القاعة نفسها؛ وهي حينما نتكلم بصوت منخفض في أحدى زوايا المحددة يستطيع من يقف في زاوية أخرى موازية أن يسمع كلامنا بوضوح "[٢١]

فهنا العطار قدم لنا جمالية هذا المكان من خلال وصفه لبعض الجزئيات الهندسية الفيزيائية التي وضعها البهائي في المسجد والتي أسهمت في صناعة فرادة وتميز المكان ، ونلاحظ حينما يقف الوصف على بعض التفاصيل والجزئيات يشعرنا أكثر بالمكان وجماليته.

ومن الأماكن المقدسة الأخرى التي وقف عليها العطار هي الأماكن المقدسة لغير المسلمين ومنها الكنائس وبعض معابد الديانات التي تصنف بأنها ديانات غير سماوية.

الكنائس والمعابد

من الكنائس التي زارها العطار في رحلته إلى أرمينيا؛ كنيسة كيغارت كاني " انطلقنا من معبد كاني إلى حيث كنيسة كيغارت وتعني الرمح وهنا يرمز إلى الرمح الذي غرس في خاصرة السيد المسيح بعد صلبه ، وهو بناء يرجع إلى القرن ١٣ الميلادي وكان يدعي (دير ايريفانتك) أي دير الكهف، وجزء منه منحوت داخل الجبل وحينما تدخل من البوابة الرئيسة كأنك تدخل نفقا محفورا بالجبل ويحيط بالبناء المنحدرات، صادف عند تواجدنا داخل الكنيسة حفل زفاف وتعميد طفل ، العروسة كانت جميلة ترتدي ثوب الزفاف الأبيض ومن دون مكياج ! العريس كان يرتدي القميص والبنطلون أستأذنا من العريس والتقطنا مجموعة من الصور، وكان المدعون والمشاركون في الزفة أكثر أناقة وتبرجا من العروس، وكل فتيات أرمينيا جميلات ومثيرات وهي ميزة تمتاز بها النساء الأرمينيات ولكن لا نعرف سبب دخولهن سريعا إلى سن الشيخوخة؛ ليختفي من وجوههن وأجسامهن بريق الجمال والنضارة... إلا إن القس في الكنيسة وتعابيره المتجهمة القاسية وتعامله معنا بخشونة وطردنا من قاعة الزفاف بالكنيسة كانت غير مبررة ، ما ضير أن يتم التقاط الصور لحفل الزفاف ؟ "[٢٢]

لم يكتفِ العطار بوصف المكان أو إعطاءه عمقه التاريخي بل جعل المكان فضاء يسع الحدث كحدث العرس ويسع انطباعاته عن الشخصيات الحاضرة في العرس والتفاته إلى التغير السريع والانقلاب الذي يطرأ على المظهر الخارجي للأنثى الأرمينية مع تقدمها في العمر ومن جماليات نص كهذا ربطه بين الماضي والحاضر فهذا التنقل بين الأزمنة يعطي ديناميكية وحيوية للنص. والأمكنة المقدسة ترتبط بأجزاء حياة الإنسان المهمة كالبدايات التي يمثلها الزواج وحتى النهايات كالموت.

ومن الكنائس التي زارها كنيسة الأخوات في أرمينيا أيضاً" وهي من الكنائس التي تعرضت في مرحلة الشيوعية إلى هدم ومن ثم إلى بناء ويرجع ذلك حسب موقف رجال الدين الأرمن من نظام (ستالين)... كان وصولنا مع وجود قداس في أحدى كنائس الأخوات حيث التراتيل والعزف الموسيقي والشموع التي تضيء الكنيسة لاحظنا بأن القس يوبخ الفتيات اللائي يظهرن جزءاً من أجسامهن ويأمرهن بتغطية أنفسهن حتى يقدم لهن الانجيل لتقبيله ويمسح على رؤوسهن "[٢٣].

مزج الرحالة بين الحاضر والماضي وقدم المكان من خلال صورة حركية تعطي للمكان طابع الانفتاح على الرغم من أن الكنيسة من الأماكن المغلقة هندسيا، فلو أنه وصفها وأكتفى بوصفه دون السرد وذكر الاحداث ، لبقيت صورة الكنيسة في أذهاننا جامدة مغلقة، وطابع الإيجاز الذي ذكر به هذا المكان والكثير من الأماكن في مدونته يعطي شيئا من الجمالية للنص وباعتقادي أن النصوص التي تراعي الإيجاز غير المخل، هي نصوص تواكب العصر الحالي عصر السرعة وعصر تغريدات ومنشورات التواصل الاجتماعي القصيرة، فنص العطار نص يحمل طابع المعاصرة بأسلوبه .

ومن الكنائس التي مرَّ على ذكرها كنيستي (وأنك وبيت لحم في اصفهان)[٢٤]

ولم تقتصر رحلاته على معابد المسلمين والمسيحيين ، بل تجاوزهم لغيرهم ومن تلك المعابد معبد النار المجوسي (آتشكاه)[٢٥] ومعبد (كاني) الوثني لإلهة الشمس في أرمينيا: " استمرت السيارة بالصعود، حتي أصبحنا على ارتفاع ١٣٩٦م حيث يقع المعبد الوثني كاني، يقول الدليل السياحي: بأن لدى أحد ملوك أرمينيا زوجة جميلة جدا ، كان يخاف ويغار عليها فقام ببناء هذا المعبد لتعبد به إلهة الشمس كان ذلك سنة ٦٦ق.م، إذ كان الأرمن وثنيين قبل أن يعتنقوا الدين المسيحي سنة ٤٠ ميلادية وتم هدم جميع المعابد وبناء الكنائس محلها لتكون أرمينيا أول دولة تعتنق الديانة المسيحية رسمياً ، المعبد بث الحياة والروح في مدينة كاني؛ حيث صار عمل للجميع بفضل السياحة التاريخية للمعبد، فهناك المطاعم والمقاهي المنتشرة في الطريق، كما أن أصحاب البساتين يعرضون سلعهم من فواكه طازجة ومجففة وحلويات للبيع أمام بوابة المعبد هناك سوق لهذه المعروضات"[٢٦].

وظف العطار هنا الإيجاز وتقنية الخلاصة الزمانية توظيفاً متقناً، فاختصر أزمنة طويلة بأسطر قليلة وبين لنا النص ما يستطيع أن يفعله الزمن وتغير ظروفه في المكان والذي تحول من مكان ديني محض إلى مكان سياحي وتجاري وهو قدم لنا من خلال استعراضه لتاريخ المكان نبذة من تاريخ أرمينيا الديني، مراعياً في كل ذلك الاختصار وحذف ما لا طائل من ذكره.

ومن الأماكن المقدسة التي ظهرت في رحلات العطار المراقد المقدسة ، كمقام الإمام الرضا في مشهد ومقام رأس الإمام الحسين بمصر و بيبي حكيمة (حكيمة بنت الإمام الكاظم في باكو في أذربيجان) ومقام بيبي شطيطة في نيشابور في إيران ومقامات الفواطم بسوريا وغيرها[٢٧] ومن تلك المقامات مقام السيدة معصومة " من الضروري لكل زائر أن يلتزم بما يسمى بآداب زيارة المراقد الدينية لذلك عليك الاغتسال وتنقية الروح

والاستعداد إلى توبة وارتداء الملابس الطاهرة والخضوع والخشوع والدخول بالقدم اليمنى والخروج باليسرى والصلاة على محمد واله عند مشاهدة القبر والضريح المطهر والوقوف أثناء الزيارة عند الرأس باتجاه القبلة وأن تقول: الله أكبر ٣٤ مرة وسبحان الله والحمد لله ٣٣ مرة ووضع الجانب الأيمن والأيسر من الوجه على الضريح المطهر وطلب الحاجات ومن ثم أداء صلاة الزيارة ركعتين وفعلا شعرت بالصفاء الروحي وأنا في ساحة الصحن وفوقي ترتفع المآذن وتنتشر الأضواء التي تعكسها المرايا مع منظر النافورات التي ترمي رذاذها في أحواض تلتمع فيها المياه الرقراقة "[٢٨]

بين لنا خصوصية المكان المزار بلغة سلسلة تصل إلى هدفها بأقل الكلمات ، من دون أطناب ولا اسهاب ووضح الطقوس المتبعة عند الزيارة وصور بعضا من جماليات المكان وبين لنا الأثر الذي تتركه تلك الطقوس وتلك الجماليات في النفس وكيف أنها تسهم بصفا الروح وتزكية النفس.

ونلاحظ أن جماليات الموصوفة هي من مكونات المكان الحقيقية وهذه من خصوصيات المكان في أدب الرحلة فالمكان في الرحلات مكان واقعي وهذا لا يتنافى مع كون المكان الرحلي له الكثير من الظلال الخارجية فلا يدرس بمعزل عن تاريخه ومحيطه الاجتماعي والطبيعة النفسية والفكرية لهذا المحيط ، لذلك نرى العطار يقدم دراسة جيدة لمدينة قم، وبعضا من خصائص ساكنيها ودورها وأهميتها ودور مقام المعصومة في تشكيل تلك الأهمية وامتدت هذه الدراسة لما يقارب العشر صفحات[٢٩].

المكان الطبيعي

شغلت الأماكن الطبيعية مساحة مهمة في رحلات العطار ، بل كانت هدفا من أهم أهداف رحلاته وهو ليس متفرداً عن غيره من الرحالة في هذا التوجه والميل نحو الأماكن الطبيعية المفتوحة ، فقد" شغلت الطبيعة الرحالة وكانت هدفه الأول في أثناء تنقلاته، فأسقط عليها إحساس المغترب ليألف المكان ويعتاده ، لكنه لم يجد نفسه بين خباياها إلا واصفا يقارن بين الطبيعة المتغيرة من بلد إلى آخر وبين طبيعة بلد المنشأ. أهتم بالمياه والبحار والآبار وذكر التربة وخيارتها بإسهاب ولم تغفل نظرته الجغرافية من وصف المناخ والهواء"[٣٠].

وطبيعي لمن كان عيشه وعمله في مدينة كبغداد تعمل فيها الزحامات والحواجز على تضيقها، أن يكون هدفه الأمكنة المفتوحة على الطبيعة حين يغادرها . فهذه الأمكنة يتم اللجوء لكسر روتين الحياة الاجتماعية المعتادة [٣١]

و الأماكن الطبيعية جزء مما يعرف بالأماكن المفتوحة. فالغابات والبساتين والصحراء والبحار والأنهار والسهول والجبال وكل المفردات المكانية التي تنتمي إلى الطبيعة تعد أماكن مفتوحة. [٣٢] فتمثل المساحات الواسعة والجبال والمنحدرات من الأمثلة النموذجية على المكان المفتوح وهذا الانفتاح يفضي بالضرورة إلى مجموعة من

التجارب الحياتية والصعوبات التي بحاجة إلى عزم وقوة بدنية على خوضها وتجاوزها[٣٣] والبحر من الأمكنة الطبيعية التي شكلت عنصراً واضحاً في الرحلة الأدبية[٣٤] والبحر في الرحلات هو المكان المتحرك وفي الرحلات يرتبط البحر بالمحن العنيفة التي يلاقيها الرحالة في أثناء عبوره وللبحر صور عديدة ومتناقضة في ذاكرة الإنسان بشكل عام ؛ فالبحر يحمل صفات الغضب والطيش والقتل والغدر والشراسة وفي الجهة الأخرى فإن البحر يحمل سمات مناقضة تماماً؛ منها الهدوء والجمال[٣٥].

ومن أمثلة حضور البحر ما جاء في رحلته إلى الأردن من زيارته إلى البحر الميت : " لا يمكنني أن أنسى صورة الرجل الذي يقرأ جريدة وهو يستلقي على ظهره في البحر الميت، وحينما وصلت إلى البحر الميت، هناك أكثر من تحذير نصب في الطريق المؤدي إلى البحر الميت ينصح بعدم الذهاب بعيداً في السباحة ويفضل السباحة على الظهر! أذن من همس بأذني بأنني لا يمكن أن أتعرض للغرق بالبحر الميت؛ لأن نسبة الأملاح في البحر الميت تعادل تسعة أضعاف تركيز الأملاح في البحر المتوسط! ويرجع سبب ملوحة البحر إلى أنه عبارة عن بحيرة مغلقة وهي الوجهة النهائية للمياه التي تصب فيه؛ حيث لا يوجد مخرج بعده، أنا سمعت نصيحتهم فعندما كنت في البحر الميت استلقيت على ظهري وبدون حركة طاف جسمي على سطح البحر؛ لكن الأمواج كانت قوية تأخذني يمينا وشمالا، انقلبتُ على وجهي وبذلك لم أطبق النصيحة الثانية وهي أن أكون حريصا؛ بحيث لا يدخل الماء فمي"[٣٦].

بدأ العطار كلامه عن البحر الميت برسم صورة جاذبة ومغرية بقيت عالقة في ذهن الرحالة، للرجل يقرأ الجريدة وهو مسترخيا في مياه البحر. وعرض لنا البحر ليس فقط عن طريق الوصف الذي بين فيه انغلاقه وتأثير ذلك الانغلاق على ملوحة ذلك البحر بل عرض البحر عن طريق حادثة السباحة التي تبين خطورة هذا البحر وخاصة في الأيام التي تشدد فيها الرياح وتقديم البحر عن طريق السرد ، يعطي للمكان طابع الحيوية والحركة وهذه الحيوية والحركية تتناسب مع كون البحر من الأماكن المفتوحة.

وعرض لنا العطار أيضا خطورة نهر (كادي) في رحلته إلى سريلانكا عن طريق مشهد سردي بادر فيه مباشرة في الدخول في الحدث من دون أن يمهد لذلك الحدث بالوصف، يقول: " كان علينا الذهاب إلى نهر كادي، لممارسة الرياضة الأكثر خطًورة وتعد مغامرة وهي السفاري النهري بالزوارق المطاطية حيث علينا أن نقطع ٦ كم في نهر سريع الجريان تتخلله عبور خمس ممرات بين الأحجار الكبيرة والأمواج المتلاطمة، تم البسنا الخوذ والطوافات لحمايتنا من الصخور والغرق وأعطونا التوجيهات من قبل المرافقين معنا في الزورق... ركبنا الزورق ونحن نجذف وما أن وصلنا إلى منطقة الصخور الرهيبة حتى ارتفع وارتطم الزورق بالماء فغطى الماء الجميع لنصبح نحن تحت الأمواج وكان المتدرب والمسؤول عن سلامتنا يصرخ (داون) ويقصد الانخفاض برؤوسنا وأجسامنا داخل الزورق! وهكذا لخمس مرات من مقاومة انقلاب الزورق والخروج من المناطق الخطيرة ونحن نضحك، كيف قبلنا أن نضع أنفسنا في مثل هذه المواقف الخطيرة"[٣٧]

قدم لنا العطار مشهداً مليئاً بالحركة، عارضا بذلك شيئا من خطورة هذا المكان المفتوح ومما اسهم بخلق هذه الحركية في هذا المشهد استخدام الكاتب لكثير من الأفعال من قبيل(نقطع، ركبنا، نجذف، ارتفع ، ارتطم، يصرخ) اسهمت هذه الأفعال بصنع حركية وحيوية هذا المشهد واعطت له شيئاً من الإثارة ولكن وإن كان تقديم الأماكن من خلال السرد والتركيز على الأحداث يعطي شيئا من الإثارة والإيجاز والسرعة، منسجما في ذلك أسلوب الكاتب مع سرعة الحياة الحاضرة والتوجه العام عند الإنسان المعاصر لما هو سريع وموجز إلا أنه يفقدنا متعة العيش مع التفاصيل التي يعطيها الوصف وما دام أدب الرحلات أدب مكاني فينبغي أن يحتل الوصف فيه مساحة أكبر من التي أعطاها العطار في عرضه للأمكنة.

ومن الأمثلة الجيدة على ما يعطيه الانفتاح للأماكن الطبيعية من اتساع في الخصائص الفنية، ما جاء في رحلته إلى سريلانكا أيضا من زيارته إلى نهر (كاتو)، يقول: "من أجمل الأنهر في العالم لاتساعه وما يحتويه من مناطق خضراء تحيط به، تتشابك فيها الأشجار لتكون ظلالا جميلة أخاذة، كانت الزوارق تنطلق وهي تحمل السياح الأجانب والعرب والعراقيين إلى عرض النهر... أخذ الزورق يسير بنا تارة سريعاً ومرات ببطء لاكتشاف معالم المكان الذي يحيط بالنهر وكنا نحيي ركاب الزوارق الأخرى ويردون هم التحية وبعد دخول متعدد بين أغصان الأشجار حتى نبدو وكأننا في مستنقعات حقيقية يخرج الزورق إلى عرض الشاطئ ليذهب بنا إلى حيث المساج بالأسماك، وهناك أسماك حمراء صغيرة وأسماك سوداء كبيرة ، مارسنا المساج ووضعوا بأيدينا (فرخ تمساح) "[٣٨]

نلاحظ أن العطار زاوج بين السرد والوصف في تقديم المكان، فعمل الوصف على أشعارنا بشيء من الحميمية والجاذبية تجاه نهر (كاتو) وهذا ما لم نستشعرهُ تجاه نهر (كادي) الذي لم يكن عنيا بوصفه. ومما أعطى شيئاً من الحيوية والحميمية للمكان ظهور أشخاص يرافقونه في الرحلة وأن كان ظهورهم ظهورا هلامياً غير محدد.

وشلالات (دودان) في أنطاليا بتركيا من الأماكن الطبيعية التي زارها"قادنا المرشد السياحي للنزول في الأنفاق التي تقع تحت الشلالات – عليك أن تكون حذراً وتنحني؛ لأنه يمكن أن تضرب رأسك في حجر سقف النفق في بعض الأماكن– لاحظنا بأن قطرات المياه قد نقشت لوحات رائعة تشكيلية على حيطان وسقوف الانفاق وكان الجو فيها بارداً يشبه أجواء (السراديب) عندنا وعند خروجنا من الأنفاق ظهرت لنا الشلالات ويعد المكان من أجمل الأماكن لالتقاط الصور التذكارية خاصة وأن الأشجار بأغصانها المتشابكة وأوراقها المتدلية القريبة من جريان المياه تضفي على الصورة جمالاً إضافيا يتحرش بنا بنث رذاذهُ الناعم على وجهنا "[٣٩]

وقف حمدي العطار هنا واصفاً؛ وصفاً إجمالياً لبعض جماليات المكان، بلغة سلسلة ورشيقة إلى حد بعيد ونلاحظ أنه لا يتجاوز على واقعية الأمكنة في أدب الرحلات فلا نراه يبالغ في وصف الأمكنة بما ليس فيها، فيحاول أن يقدمها بواقعيتها وحقيقتها وبجمالياتها التي تنبع من مكوناتها الداخلية.

من الأمكنة الطبيعية المفتوحة التي زارها في أحدى رحلاته إلى لبنان قرية(بشري) التي ترتبط بالأديب اللبناني جبران خليل جبران، يقول:" طبعاً ليس الوصول إلى(بشري) سهلاً فعلينا أولاً أن نقطع الطريق من بيروت باتجاه الشمال وكأننا ذاهبين إلى طرابلس ومن ثم ننحرف يميناً لتبدأ رحلة الصعود إلى قمة جبل يرتفع ٢٥٠٠م على سطح البحر في منحنيات بمنتهى الخطورة لوعورة الطريق لمتابعات إشارات الدلالة التي تشير إلى مكانيين(الأرز)و(بشري) أما بشري فهي القرية التي ولد ودفن فيها جبران خليل جبران والأرز هي محمية تقع في قمة الجبل وتأتي بعد قرية بشري أذن علينا الصعود إلى ٢٥٠٠م ارتفاعا عن سطح البحر لنحظى بزيارة منزل ومتحف جبران، وفي تلك المعاناة التي ترافق السفر في الجبال لا تهدأ النفس إلا بصوت فيروز وهي تغرد بأشعار جبران خليل جبران لتكون خير دليل ومعين إلى معاني الكلمات العظيمة التي كان ينظمها عن الأماكن في بشري الخالدة، وصدقاً تقول في حيرة التساؤل الممزوج بالإثارة والأغراء:

هل اتخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور

فتتبعت السواقي وتسلقت الصخور

هل تحممت بعطرٍ وتنشفت بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير"[٤٠]

نراه يصف لنا صعوبة ومشقة الوصول إلى هدفه وهذه الصعوبة ترافق وصف الأماكن الطبيعية عند الرحالة ولكن ما يخفف وطأة ومشقة المسير صوت المطربة فيروز وهي تغني شعر جبران ذاته وهو يتغنى بجماليات (بشري) ذاتها فنراه يستثمر قابلية أدب الرحلات على الانفتاح على الأجناس الأدبية الأخرى ليصف لنا جمال قرية بشري بلسان ابنها جبران فهذا التداخل الأجناسي بين السرد وبين الشعر يقود إلى تعدد منافذ المتعة التي يعمل أدب الرحلة للوصول منها إلى المتلقي ويعمل على كسر رتابة السرد .

المكان تمثيلاً للآخر

مما يميز به الرحالة في الرحلات الأدبية بين الأمكنة التي يقصدها أو يمر بها؛ طبيعة سكان تلكم الأماكن، فالرحلات ليست وصفا جغرافياً هندسياً محضاً للأماكن من دون ترك انطباعات عن طبيعة سكان البلد المزار.

فهذه الأمكن المؤقتة التي يزورها الرحالة لمدة قد تطول لشهور أو سنوات وقد تقصر لعدة أيام تترك أثراً عميقاً في حياة الرحالة نتيجة لما قد يجده في نفوس ساكنيها من طيب معاملتهم أو سوئها[٤١]

فطبيعية مجتمع أو أفراد هذ الأمكن هي من تشكل صورة هذا المكان في ذهن الرحالة فما نعرفه " عن المكان جزء لا يتجزأ مما نعرفه عن الشخصية التي تتحرك أو تستقر في المكان والفعل أو رد الفعل الذي تأتي فيه "[٤٢]

فشخصية الرحالة ومن خلال انطباعاتها هي من تعرف القارئ بطبيعة المكان المرتحل إليه فـ "المكان لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر شخصية تعيش فيه أو تخترقه"[٤٣]

وتتغير وجهة نظر الشخصية مع تغير المكان ، والراوي ينبغي عليه أن ينتقل معها ويتابع ويرصد الحالات الانفعالية والوجدانية : الإيجابية والسلبية التي يتركها المكان على الشخصية[٤٤]

ومن أهمية موضوع الآخر في الرحلات أن الرحلات العربية القديمة كانت تعد مصدراً للأخبار عن الآخر وعالمه وعاداته وتقاليده[٤٥] وورثت الرحلة العربية المعاصرة هذه الميزة من الرحلات العربية القديمة[٤٦] والرحالة حمدي العطار سايرَ كتاب أدب الرحلة العرب في الاهتمام بموضوعة الآخر ، فكان للآخر ظهورهُ اللافت والهام والمؤثر على طبيعة المكان وتنميطهِ في رحلات العطار، فنرى أن هناك من الأمكنة ما يمكننا أن نصنفها على أنها أمكنة طاردة بسبب طبيعية سكانها وعلى العكس هناك من الأمكنة ما نستطيع أن نصفها بأنها أماكن جاذبة؛ بسبب طبيعية سكانها أيضاً.

لبنان من الأمثلة التي تقدمها رحلات العطار على الدور الذي تؤديه طبيعية أفراد المجتمعات في رسم صورة ذهنية جاذبة في أذهان الأخرين" لبنان بلد خلق السياحة، وليس السبب فقط كون أن الطبيعة جميلة وزاخرة بجمال البحر واخضرار الأرض والجبال الشاهقة، وليس لأن المناخ فيها غاية في الروعة والجمال والاعتدال، وليس بسبب المواقع الأثرية والتاريخية التي تحكي قصصاً تمثل عبق الماضي وليس للتعايش بين مكونات الشعب اللبناني المتنوعة وحتى المتناقضة في الأفكار والتوجهات والتي أيقنت بأن الصرعات الدينية لا يمكن أن تخلق النصر لأي منهم ... كلها عوامل تشجع على السياحة ويمكن أن تجدها أيضاً في أكثر من بلد أوربي أو حتى عربي مثل تونس والمغرب ومصر ؛ولكن في لبنان يملك السائح (حريته) الكاملة والتي قد تكون مفقودة أو ناقصة في بلده أو البلدان التي يزورها، الناس هنا حريصون جداً على عدم اقتحام خصوصيات الآخرين"[٤٧].

يقدم العطار هنا طائفة من الأسباب التي يمكنها أن تصير بلداً ما بلداً سياحياً وجذاباً من عوامل طبيعية وتاريخية وإنسانية وكل هذه العوامل متوافرة في لبنان ولكن ما يخلق فرادة السياحة بلبنان جو الحرية الذي تخلقه طبيعية الفرد اللبناني والذي لا يتدخل في خصوصيات الآخر، وليس هذا فقط، فاللبنانيون" يتصرفون مع الغريب بشكل طبيعي ويرحبون به ترحيباً حاراً وكأنهم يعرفونه منذ زمن طويل، سر نجاح السياحة في لبنان هي الملامح الإنسانية والعاطفية التي يمكن أن تلمسها عند سائق التكسي أو عامل المطعم وفي استعلامات الفندق، يشتهر بحسن الضيافة وبالكرم، السياحة في لبنان روح وليس مادة فقط"[٤٨]

وفي لبنان قد يتحول حتى سائق الأجرة إلى صديق ويتطوع ليكون مرشداً سياحياً، يقول العطار: " أخذنا السائق الصديق في جولة ليلية إلى منطقة الأشرفية في بيروت الشرقية، وهي المنطقة الخاصة بسكن المسيحيين، تجولنا في الجميزة ومار ميخائيل... غادرنا الاشرفية وكانت رغبتنا الرجوع إلى الفندق خاصة وأن الساعة كانت الثانية عشرة ليلاً؛ لكن سائقنا أصر على أخذنا إلى مرتفعات تسمى(عالرية) تناولنا هناك فوق الجبل القهوة وكانت

الأضواء تثير لدينا الاحساس برؤية مدينة بيروت الساهرة ورجعنا للفندق وسائقنا يردد العبارة التالية(الليل في بيروت ليس للنوم بل للسهر "[٤٩]

فالسائق صديق وله بحكم هذه الصداقة صلاحية تغيير مسار الرحلة ويقوم بعمله بحب ويبذل فوق ما هو مطلوب منه، فالسياحة ناجحة بلبنان لاعتبارات عاطفية وإنسانية وروحية واجتماعية تتعلق بطبيعة تكوين الفرد اللبناني.

ومن تلك البلدان التي تجذبك بسبب طبيعية أبناء شعبها؛ السودانُ :" ليس هناك أكثر مرحاً وتسامحاً من المواطن السوداني، ونظرة سريعة لتاريخ السودان سوف تتعجب كيف يختزن المواطن السوداني كل هذا الفرح ولا يستقبلك إلا بالابتسامة ويحتضنك مرحباً بك قبل أن يعرفك! دول كثيرة تقع على حدود السودان؛ طيبة هذا الشعب تغري هؤلاء للقدوم إلى السودان والمكوث فيها؛ بسبب تعامله السهل مع الغرباء"[٥٠]

فالطبيعة النفسية والاجتماعية للسوداني ومقدرته على تحمل الظروف الصعبة ومقدرته على التعامل بمرونة مع الأخرين؛ جعلت من السودان نقطة جذب لما يجاورها من بلدان.

ومن المواقف التي نقلها العطار والتي تبين ما عليه نفسية السوداني من أريحية وحب لتعاون والبذل والعطاء من دون مقابل، قوله: " تم ختم تجوالنا بالذهاب إلى (حديقة النباتات) وعلى الرغم من أنها أيضاً مغلقة؛ لكن الحارس والمرشد السياحي فتحوا لنا الباب وكانا كريمين جداً وخاصة المرشد الذي أخذ يشرح لنا تسمية الأشجار السودانية وفوائدها الطبية في مجال معالجة أمراض السكر والزكام وحتى الملاريا، وكذلك استخدام البعض للصمغ والحطب كظل أو مصدات للهبوب وتعني كلمة الهبوب في السودان العواصف الترابية. تصورنا بأن المرشد والحارس سوف يطلبون مالاً مقابل خدماتهم؛ لكنهم رفضوا أخذ أي مبلغ وبابتسامة لطيفة تدل على نزاهتهم وحسن الضيافة كان الوداع معهم"[٥١]

فمن شأن الصفات الإيجابية التي جُبلَّ عليها المواطن السوداني والتي نجد لها مصداقاً لها في حسن تصرف حارس الحديقة والمرشد السوداني مع العطار أن تكون نقطة جذب وقوة من الناحية السياحية للسودان.

ومنظار الكاتب وما يؤمن به من قناعات قد تلعب دوراً في انجذابه لمدينة ما وعدم انجذابه لمدينة أخرى، ومن ذلك انجذاب العطار لمدينة أصفهان بسبب طابعها المدني: " لأن لأصفهان تاريخاً وحضارةً، وتملأ ساحاتها المراكز والمعالم والمباني الأثرية، وتنتشر فيها المراكز السياحية الطبيعية الترفيهية، فليس باستطاعة أي نظام أن يضعها في أطار محدد، هي مدينة تطلع إلا أن تكون مدنيَّة وليس دينيَّة... وهناك مجموعة من الظواهر السلبية، كنا قد سجلناها عند مكوثنا في طهران وقم ومشهد لم نرها في أصفهان! مثلاً لم نجد متسولاً في شوارع أصفهان بينما كان الكثير من المتسولين يضايقوننا في شوارع المدن الدينية"[٥٢].

يرى أن ما صير من أصفهان مدينة مدنية عصية على أن تكون دينية؛ عمقها التاريخي وتوافر مظاهر ومعالم ومراكز الحضارة فيها وكان لهذا أثر في خلق الذوق المدني عند الفرد الأصفهاني مما جعله يتجنب كثيراً من السلبيات التي قد تتواجد في الأماكن الدينية، نرى أن العطار حكَّم عوامل ايدلوجية تتعلق في منطلقاته التي يؤمن فيها –كما يبدو– ليقدم أصفهان المدنية –كما يراها– على حساب مدن تتمتع بالطابع الديني.

ومن هذا القبيل ما جاء في زيارته لميدان تقسيم بتركيا: " حينما أرادت الحكومة التركية تحويل حديقة(جيزي) في تقسيم من مكان للقاء العشاق إلى جامع جوبهت بمظاهرات صاخبة، رافضة، جرت في منطقة تقسيم وشارع الاستقلال؛ لمنع خلط الدين بالسياسة؛ لأن تركيا دستورياً دولة علمانية، حتى أن المرشدة السياحية كانت تؤشر بأصبعها قائلة (هنا في الجانب الأيسر ملهى ليلي وهناك في الجانب الأيمن بار للمشروبات الكحولية وفي الوسط جامع نحن لا نهتم بمثل هذه الأمور)!!... و يا ليت كل دول العالم تكون علمانية، ليهتم كل شخص بشؤونه الخاصة من دون التدخل باختيارات الأخرين واجبارهم على ممارسة ما لا يرغبون أو يؤمنون به"[٥٣]

الحرية التي يحرص ليبراليو تركيا على الحفاظ عليها وعلى الحفاظ على نظام الدولة العلماني المانع من خلط الدين بالسياسة هو مما جذب العطار إلى تركيا بل تمنى أن تكون كل الدول علمانية تحترم الحريات الشخصية كتركيا، فمنطلقات العطار

(الليبرالية) هي من صيرت تركيا مكاناً جاذباً بنظره.

ونرى مثل ذلك في رحلته إلى(باكو) عاصمة أذربيجان، يقول: " هناك أربعة جوامع يصلي فيها من يريد الصلاة بغض النظر عن مذهبه(شيعي أو سني) هناك يركزون على عدم إثارة النعرات الطائفية... حينما سألت المرشدة السياحية(نرجس) وهي مسلمة فيما إذا كانت شيعية أو سنية؟ أحمرَّ وجهها ارتباكاً وردت عليه بأنها (مسلمة) على فكرة العراقيين قبل أن يتلوثوا بالطائفية كان جوابهم مثل جواب الأذرية!... حيدر علييف جعل أذربيجان دولة علمانية أما الإسلام فهو بالاسم فقط، وحاول جاهداً أن يجعل باكو وباقي المدن الاذرية يعم فيها الأمن والاستقرار لذلك استقطبت باكو العديد من المسابقات والمهرجانات الدولية والأوربية"[٥٤]

من ميزات مكان الآخر هنا الابتعاد الكبير عن الجوانب الطائفية، حتى أن العطار حينما سأل المرشدة، أحمرَّ وجهها وارتبكت. وعقد العطار مقاربة بين مكان الآخر البعيد عن الطائفية ومكان الأنا(العراق) قبل ظهور التطرف الديني مستعملاً جملة دالة على مدى شناعة الطائفية (يتلوثوا) ويشير إلى أن ما جنب اذربيجان مآلات الطائفية من عدم استقرار وفقدان الأمن؛ تمسكها بالنظام العلماني، مما هيأها لاستقطاب المهرجات والمسابقات الأوربية والدولية.

مثلما كان أفراد كثير من المجتمعات المرتحل إليها في هذه الرحلات سبباً في تسويق مدنهم وبلدانهم على أنها أماكن جذب، كان هناك أفراد في مجتمعات أخرى سبباً في تصدير صورة طاردة عن أوطانهم.

الشعب الأرميني والذي يملك توجساً اتجاه الآخر والذي يعوزه شيءٌ من فن التعامل مع الآخر من الأمثلة التي يمكننا سوقها على الأمكنة الطاردة.

وهناك أسباب طبيعية جغرافية وأسباب تاريخية قادت إلى هذا السلوك التباعدي مع الآخر: ف" أرمينيا بلد جبلي لا يطل على البحر والشعوب غير الساحلية تحس بضيق المكان ونوعاً من الانكماش الاجتماعي! ومع هذا فأن أرض أرمينيا قبل أن تكون جمهورية شيوعية، كانت قد استوعبت(الآشوريين، اليونانيين، الرومان، البيزنطيين، العرب، المغول، الفرس، الأتراك العثمانيين، ومن ثم الروس) وأرض صغيرة تستوعب كل هذه الأجناس، [و] لا يمكن أن تكون لها خبرة في التعامل مع الآخر! وهذا ما نلمسه! لأن الاضطرار غير الاختيار، فهي استقبلت كل هذه الاجناس كمحتلين ومضطهدين، لذلك امتلكت التوجس من الغريب"[٥٥]

فهذا التخوف من الآخر له ما يبررهُ فكثيراً ما كان الآخر غازياً معتدياً فما كان من الأرميني إلا أن يبرمج نفسه على ردود فعل فيها أشياء من التحفظ تجاه الغريب . وكان لهذا السلوك التباعدي اسقاطاته على الجانب السياحي ومن ذلك قول العطار: " وصلنا فندق (نارينا) يقول الدليل السياحي هو بدرجة أربع نجوم ويمكن أن يصبح خلال سنة خمس نجوم أما أنا فتقييمي له بلا نجوم! وتستغرب بأن المسافر المتعب لا يجد من يحمل عنه الحقائب ويوصله إلى غرفته كما يحدث في كل فنادق العالم والغرف ضيقة والتبريد ضعيف والإنارة خافتة والسرير غير واسع والحمام غير مجهز بمستلزمات تدل على النجومية... ينقص الأرمينيون الكثير من الخبرة"[٥٦]

فكان لهذا الطابع الانكماشي الانعزالي لدى الأرميني أثره في فقدانه للذكاء واللياقة الاجتماعية التي تؤهله لحسن التعامل مع الآخر المختلف، وهذا مما القى بظلاله على الجانب السياحي لأرمينيا وأفقدها شيئاً من بريقها وجاذبيتها.

ومن الأمكنة الطاردة بسبب طبيعة سكان المدينة التي يقع فيها وطريقة تفكيرهم؛ كهف نبي لوط بالأردن، يقول الرحالة: "عندما أردنا زيارة الكهف، كأن القائمين على الموقع السياحي لا يرغبون بزيارة الكهف، فقد قالوا للسائق ننصحك بعدم الصعود بسيارتك خوفاً عليها من الحجر(وكأنهم غير معنيين بتنظيف الطريق المؤدي إلى الكهف صعوداً) سمع السائق نصيحتهم، واضطررنا إلى خروج لجبل من أعلى جبال الأردن، وحينما وصلنا إلى أعلى الجبل[كان] علينا صعود سلم طويل؛ حتى أن صديقي توقف عن صعود السلم بسبب الارهاق بينما أكملنا أنا والسائق الصعود إلى الكهف، وتلمسنا مدى الاهمال الذي يعاني منه هذا الأثر التاريخي، صخرة صغيرة جداً كتب عليها(كهف النبي لوط) لا يوجد مرشد يشرح لنا كما في الأماكن الأخرى، لا توجد رسوم تدفع للوصول إلى الكهف! ترى ما هو ذنب نبي كان قومه قد ابتدأوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من البشر(فاحشة اتيان الذكور وترك النساء) "[٥٧]

كان للاقتران الشرطي- بين ذكر النبي لوط(عليه السلام) وتذكر (الشذوذ الجنسي) الذي كان قومه أول من بدأوا به، حتى أن تسمية السائدة لهذا الفعل هي اللواط!!! سبباً في اهمال الناس لمعلم تاريخي وديني يفترض أن يكون مهماً ككهف لوط(عليه السلام) فلم يهتموا في تهيئة أسباب نجاحهِ كمعلم سياحي، فالناس هم من حول مَعلماً يفترض أن يكون مكاناَ سياحياً جذاباً إلى مكان طارد وخارج دائرة اهتمامهم إلى درجة تعبير الرحالة أن القائمين على كهف كأنهم لا يريدون أن يقصد الناس هذا الكهف.

الخاتمة

ـ يقدم العطار الأماكن التي يقصدها بطريقة مميزة تجمع بين الوصف والسرد ولا يقدم المكان التاريخي المقدس بمعزل عن المعلومات التاريخية التي تعطي عمقاً للمكان.

ـ ومن جماليات سرد العطار أنه يقدم لنا بعض الأماكن من خلال السرد الأحداث مع مراعاة الإيجاز غير المخل.

ـ كان المكان الطبيعي من أهم مقاصد العطار في رحلاته بل كان هدفاً من أهدافها وطبيعي لمن كان عيشه وعمله في مدينة كبغداد تعمل فيها الزحامات والحواجز على تضيقها، أن يكون هدفه الأمكنة المفتوحة على الطبيعة حين يغادرها.

ـ مما يميز به الرحالة حمدي العطار في رحلاته الأدبية بين الأمكنة التي يقصدها أو يمر بها؛ طبيعة سكان تلكم الأماكن، فالرحلات عنده ليست وصفا جغرافياً هندسياً محضاً للأماكن من دون ترك انطباعات عن طبيعة سكان البلد والأمكنة عنده طاردة أو جاذبة بسبب طبيعة سكانها.

الهوامش

١) ينظر: رحلات ناجي الساعاتي الموضوع والبناء ، د سامر وجيه ، مكتبة دجلة ، ، العراق بغداد ط١، ٢٠٢٢ :١٨٧- ١٨٨ .

٢) ينظر الرحلة في الأدب العربي ،حليفي، مكتبة الأدب المغربي ،ط١ ، ٢٠٠٢

.٢١٨:

٣) ينظر: جماليات التشكيل الروائي دراسة في الملحمة الروائية (مدارات الشرق) لنبيل سليمان ، محمد صابر عبيد و د سوسن البياتي ، عالم الكتب الحديث ،إربد الأردن ، ط١ ، ٢٠١٢ :١٩٧.

٤) ينظر: بنية السرد في رحلات الحكايات الأندلسية د. نبيل هادي ناهي ، دار تموز ، دمشق ،ط١ ،٢٠٢١، :١٢٧.

٥) ينظر: شعرية الرحلة الأدبية في السرد العراقي المعاصر ، د . زينب ساطع عباس ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ، ط١ ، ٢٠٢١ ،:٩٣.

٦)الشخصية في أدب جبرا إبراهيم جبرا الروائي ، فاطمة بدر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،ط١، ٢٠١٢،:١٦٠.

٧) ينظر: الشخصية في عالم غائب طعمة فرمان الروائي، د. طلال خليفة سلمان ،دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط١، ٢٠١٢ : ١٨٦.

٨) ينظر: بنية السرد في رحلات الحكايات الأندلسية :١٢٧.

٩)ينظر: جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسين (أطروحة دكتوراه) ، سعاد عبد الله أبو ركاب، إشراف فايز القيسي،جامعة مؤتة، ٢٠١٠ :٧٨ .

١٠)رحلات ناجي الساعاتي الموضوع والبناء:١٤٣.

١١) ينظر: أدب الرحلة في المغرب العربي(اطروحة دكتوراه) ، جميل روياش ، جامعة محمد خضير بسكرة ، كلية الآداب واللغات ، ٢٠١٤\٢٠١٥ :٥٨.

١٢) ينظر: جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين :٥٢.
١٣) ينظر: الشخصية في أدب جبرا إبراهيم جبرا الروائي ، د فاطمة بدر :١٦٠.
١٤) ينظر: جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين : ٥٢.
١٥) رحلات ناجي الساعاتي الموضوع والبناء :١٨٧.

١٦)ينظر: أدب الرحلة في المغرب العربي:١١٣ .

١٧) رحلات ناجي الساعاتي : الموضوع والبناء : .١٨٩.

١٨) اسطنبول في عيون صحفي عراقي، حمدي العطار ، دار أمل الجديدة ، دمشق ، سوريا ، ط١ ،٢٠٢٠ :٣٠-٣١.

١٩) ينظر : المصدر نفسه: ٣٠.

٢٠) المصدر نفسه : ,٨٧

٢١) إيران في عيون صحفي عربي، حمدي العطار ، دار أمل الجديدة ، دمشق ،سوريا ، ط١، ٢٠١٦ :١٤٥.

٢٢) استطلاعات عن روسيا والقوقاز، حمدي العطار، دار الورشة،ط١، ٢٠٢١ :٦٠.

٢٣)المصدر نفسه:٦٥.

٢٤) ينظر : إيران في عيون صحفي عربي: ١٦٠-١٦١.

٢٥) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٧-١٥٨.

٢٦) استطلاعات عن روسيا والقوقاز: ٥٩.

٢٧) ينظر: إيران في عيون صحفي عربي : ١١٠-١١١ و ١٢٨.مدن عربية بنظرة عراقية ، حمدي العطار ، دار امل الجديدة ، دمشق ، سوريا ، ط١ ، ٢٠١٩ :٢١٤و٨٩-٩٠ . استطلاعات عن روسيا واقليم القوقاز:٤٣.

٢٨) إيران في عيون صحفي عربي:٦٤.

٢٩) ينظر: المصدر نفسه :٦٠-٦٩.

٣٠) خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، د. نهلة الشقران ، الآن ناشرون وموزعون ، ط١ ، عمان ،الأردن ،٢٠١٥ :٣٥ .

٣١) ينظر: تجليات المكان في الرواية روايات تحسين كريماني أنموذجا، د.قصي جاسم الجبوري، دار تموز ،دمشق ، ط١ ،٢٠١٢: ١٩٧ .

٣٢) ينظر: جماليات التشكيل الروائي: ٢١٧.

٣٣) تجليات المكان في الرواية روايات تحسين كريماني أنموذجا: ٢٠٠.

٣٤) ينظر: شعرية الرحلة الأدبية في السرد العراقي المعاصر:١٠٣.

٣٥) ينظر: جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين:٤٣.

٣٦) مدن عربية بنظرة عراقية: ١٣١-١٣٢.

٣٧) مسافر زاده الخيال، حمدي العطار، مكتبة النهضة، بغداد، ٢٠١٦ :٣٠-٣١.

٣٨) المصدر نفسه: ٣٤.

٣٩)المصدر نفسه:,١١٥

٤٠) المصدر نفسه:١٢٢-١٢٣.

٤١) ينظر: جماليات المكان في مدونات الرحالة المغاربة والأندلسيين :٥٤.

٤٢) الفضاء الروائي في أعمال جبرا إبراهيم جبرا، د . إبراهيم الجنداري ، دار تموز دمشق ،ط١ :١٩٩,

٤٣) بنية الشكل الروائي : الفضاء الزمان الشخصية ، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب،ط٢، ٢٠٠٩ :٣٢.

٤٤) جماليات التشكيل الروائي:١٩٨.

٤٥) ينظر: الآخر في الرحلات المغربية، د. لخضر حشلافي ،د. جميلة روباش ، مجلة آفاق للعلوم، العدد الثامن ،حزيران،٢٠١٧: ١.

٤٦) ينظر: شعرية الرحلة الأدبية في السرد العراقي المعاصر:١٦٦.

٤٧) مدن عربية بنظرة عراقية :١٤٩.

٤٨) المصدر نفسه: ١٤٩.

٤٩) مسافر زاده الخيال:١٣١-١٣٢.

٥٠) مدن عربية بنظرة عراقية : ٥٨ .

٥١) المصدر نفسه:٦١.

٥٢) إيران في عيون صحفي عربي: ١٤٩-١٥٠ .

٥٣) اسطنبول في عيون صحفي عراقي: ٦٧.

٥٤) استطلاعات عن روسيا والقوقاز: ٤١-٤٢ .

٥٥)المصدر نفسه:٥٣.

٥٦) المصدر نفسه:٥٦.

٥٧) مدن عربية بنظرة عراقية:١٣٤.